المحاضرة الأولى: علم التاريخ تعريفه، ومكانته

أولا: تعريف التاريخ

التمهيد:

اهتم الإنسان بالتاريخ منذ بدايات وعيه الأولى، وتحديداً منذ نشأة الحضارات الشرقية القديمة، حيث أدرك أهمية توثيق الأحداث الكبرى ونسبتها إلى صانعيها من الملوك والحكام. وقد عبر عن هذا الوعي المبكر من خلال النقوش والرسومات التي زينت جدران المعابد والقصور والأعمدة، كما كان الحال في الحضارة المصرية، ومن خلال الكتابة التي ظهرت حوالي عام 3300 قبل الميلاد في حضارة سومر. ومع مرور الزمن، تطورت نظرة الإنسان للتاريخ وتغيرت ماهيته، متأثرة باهتمامات البشر المختلفة والثقافات السائدة في المجتمعات عبر العصور.

مع انتشار التدوين والتوثيق، تشكلت ثروة معرفية هائلة من المعطيات التاريخية التي وثقت التغيرات والتحولات في حياة الإنسان. أصبحت هذه المعطيات مادة غنية للباحثين الراغبين في فهم أعمق للأحداث الماضية، مما أسهم في نشأة مجال دراسة التاريخ كعلم قائم بذاته.

وفي هذا السياق، تنوعت الآراء حول مفهوم التاريخ، يرى بعض الباحثين أن التاريخ يتجاوز مجرد سرد أحداث الماضي، ليصبح أداة لفهم تطور المجتمعات وحفظ ذاكرة الإنسانية، في المقابل يعتقد آخرون أن التاريخ ليس سوى مجموعة من الحكايات والأساطير التي تهدف إلى التسلية، بل اعتبره البعض عائقاً أمام تقدم المجتمعات. وسط هذه التباينات، نشأ البحث العلمي التاريخي، الذي يسعى عبر مناهج دقيقة إلى الوصول للحقيقة التاريخية، مما مهد الطريق لتحولات كبيرة في فهم التاريخ ووظيفته.

نتيجة لهذه التطورات، انتقل التاريخ من كونه فرعاً هامشياً ضمن المعرفة الإنسانية إلى أن أصبح عنصراً محورياً وأساسياً في فهم تطور الحضارات البشرية وتحليل حوادث الماضي بمنهجية علمية.

التعريف اللغوي لكلمة " التاريخ "

كلمة **التاريخ** في اللغة العربية مشتقة من الجذر اللغوي **(أرخ)**، الذي يدل على الإعلام بالوقت أو تحديد زمن وقوع الأحداث.

_ في اللغة العربية يقال: أرخت الكتاب أو ورخته، بمعنى حددت زمن كتابته.

_ وفقاً لما ذكره **الجوهري** في الصحاح " التأريخ تعريف الوقت، والتوريخ مثله ".

_ **السخاوي** في كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ عرّف التأريخ بأنه "الإعلام بالوقت" .

كلمة "تاريخ" تستخدم للإشارة إلى الزمن أو الحوادث المرتبطة به، وهي تشير إلى ضبط الزمن وتحديد الوقائع بالأيام أو الشهور أو السنين.

يُرجح أن أصل الكلمة يعود إلى اللغات السامية القديمة:

_ في الأكدية: لفظة *"أرخو"* تعني القمر.

_ في العبرية: لفظة *"يرح"* أو *"يارح"* تعني القمر أيضاً والتغير في منازل القمر كان وسيلة لتحديد الزمن، مما يعكس ارتباط الكلمة بمفهوم التأريخ من حيث حساب الوقت والأحداث.

لم يكن استخدام كلمة "التاريخ" شائعا لدى العرب بمعناها الحالي الذي يشير إلى الأحداث التي وقعت في الماضي، ولهذا السبب، اختلف الباحثون حول أصل هذه الكلمة، فذهب بعضهم إلى أنها تعود إلى اللغات السامية، حيث تُشتق من لفظة "أرخو" في اللغة الأكدية التي تعني القمر، إذ يُستخدم تغير منازل القمر لتحديد الأيام وبالتالي يشير إلى مفهوم التأريخ. وفي اللغة العبرية نجد لفظة "يرخ" أو "يارخ" بمعنى القمر أيضاً، مما يدل على تشابه في المعنى والاختلاف فقط في النطق بين الأكدية والعبرية.

من جهة أخرى، أرجع بعض الباحثين أصل كلمة "تأريخ" إلى اللغة الفارسية بلفظة "ماه روز"، التي تعني حساب الشهور

وكلمة "التاريخ" يُرجّح اشتقاقها من لفظ سامي يُشير إلى القمر أو الشهر، وهي تأتي بصيغتين: "تأريخ" بإثبات الهمزة، وتشير إلى التعريف بالوقت، كما يقابلها مصطلح "استوريوغرافيا (Historiographies) "في اللغات الأجنبية. يُوضح محمد بن عبد الرحمن السخاوي في كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ أن "التأريخ" يعني الإعلام بالوقت، فيُقال: "أرخت الكتاب وورخته"، أي حددت وقت كتابته. ويؤكد الجوهري هذا المعنى بقوله: "التاريخ تعريف الوقت، والتوريخ مثل"

أما كلمة "تاريخ" بتسهيل الهمزة، فهي تقابل عادة الكلمتين الفرنسيتين "إستوار (Histoire) "والإنجليزية "هيستوري(History) "، المشتقتين من اللفظ اليوناني "إستوريا(Historia) "، الذي يفيد الرؤية أو البحث. وقد أشار هيرودوت(Herodotus) ، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، إلى أن التاريخ هو "عرض للاستقصاء والمعرفة، بهدف الحفاظ على أعمال الإنسان من الاندثار"، في كتابه عن الحروب الفارسية– اليونانية.

من خلال هذه الدلالات، يتضح أن مصطلح "التاريخ" يُستخدم للإشارة إلى السرد المنظم للظواهر، سواء أكانت مرتبة زمنياً أم غير ذلك. وفي اللغة الألمانية، يُعبر مصطلح "Geschichte" عن "العلم" الذي يدرس حوادث الماضي ووقائعه، بعكس مصطلح"Sciences" ، الذي يُشير إلى دراسة الظواهر الطبيعية عبر المعاينة والتجربة دون الرجوع إلى الماضي.

تجدر الإشارة إلى أن العرب تبنوا هذا المفهوم منذ ظهور الإسلام، حيث أصبح التاريخ وسيلة لتوثيق أمجاد الإسلام وأحداثه وأخبار رجاله عبر المشاهدة والتحري. ويُعبر عن هذا قول سفيان الثوري: "لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ"، مما عزز دور التاريخ في تسجيل الأحداث وحفظها.

أما في اللغات الأجنبية، فتشير كلمة "Historia" اللاتينية إلى البحث في أغوار الماضي، بينما تعني "History"في الإنجليزية العلم المتعلق بدراسة التاريخ، كما تستخدم للإشارة إلى الماضي وأحداثه. في الفرنسية، تعني "Histoire" الماضي وسرد الأحداث، في حين أن الكلمة الألمانية "Geschichte" تُعبّر عن قصة حوادث الماضي أو العلم الذي يحققها.

التعريف اللغوي لكلمة "التاريخ" في الثقافات المختلفة (عند الغرب)

1_ عند اليونان: أصل كلمة "التاريخ" كما تُستخدم اليوم في اللغات الأوروبية يعود إلى الكلمة اليونانية **(Historia)**، التي تعني "الاستقصاء" أو "البحث" عن المعرفة، وسبر أغوار الماضي، والاطلاع على حقائقه، سواء في الأحداث أو الظواهر.

أطلق **هيرودوت**، المعروف بلقب "أبو التاريخ"، هذا المصطلح على كتابه " التواريخ " الذي تناول فيه الحروب الفارسية–اليونانية، حيث اعتبر التاريخ وسيلة لتحقيق المعرفة وحفظ الإنجازات الإنسانية من الضياع.

2_ في اللغة اللاتينية: انتقلت كلمة "Historia" من اليونانية إلى اللاتينية، حيث احتفظت بمعناها المتعلق بالتحقيق في الماضي وتوثيق الوقائع.

3_ في اللغة الفرنسية: الكلمة الفرنسية **Histoire** مأخوذة من اللاتينية "Historia" ، وتشير إلى الماضي وتوثيقه. وتعني ماضي وأحداث التاريخ وH كبرى يدللون بها على تاريخ العلوم. والكلمة تطورت أيضاً لتشمل الحكايات والقصص (story) ، إلى جانب المعنى العلمي المتعلق بدراسة التاريخ.

4_ في اللغة الإنجليزية: الكلمة الإنجليزية **History** مشتقة من اللاتينية "Historia" بمعنى العلم، وتعني دراسة الماضي، وتوثيق الأحداث، وتحليلها لفهم تطور المجتمعات، كما تستخدم بمعنى التاريخ والتأريخ. وفي السياق العام قد تعني الكلمة أيضًا "قصة" أو "حكاية"، مما يظهر تشابهاً مع الكلمة الفرنسية "Histoire"

5_ في اللغة الألمانية: الكلمة الألمانية **Geschichte** تُستخدم للإشارة إلى التاريخ بمعنى الحوادث الماضية وعلومها، لكن الكلمة نفسها تعني أيضًا "قصة." و الكلمة الألمانية مشتقة من الفعل Geschichen ومعناها قصة والتي تعني حوادث الماضي وأخباره أو العلم الذي يحققها، أو الشيء الذي يحدث، فما حدث هو التاريخ والواقع وما بقي هو التاريخ المسجل، والتاريخ لا يمكن أن يروى إلا من التاريخ المسجل، كما يروى هو التاريخ المقصوص أو المكتوب.

تركز كلمة "Geschichte" في الغالب على الحوادث التي وقعت، وتُعرّف بأنها العلم الذي يحقق في وقائع الماضي.

في جميع هذه الثقافات، يتجلى المعنى الأساسي للتاريخ في محاولة فهم الماضي من خلال توثيقه، والبحث في أسبابه ونتائجه، ودراسته كوسيلة لفهم الحاضر والمستقبل. والاختلاف يكمن في:

_ اللغات الأوروبية (مثل الإنجليزية والفرنسية)، الكلمة تشمل الحكايات (Story) إلى جانب المعنى العلمي.

_ اللغات السامية والعربية، الكلمة مرتبطة بضبط الوقت وتأريخ الوقائع.

_ الألمانية، يُبرز التاريخ كعلم لتحقيق الوقائع وتحليلها بدقة.

المعنى الاصطلاحي للتاريخ

في الاصطلاح، يشير "**التاريخ** "إلى دراسة وتوثيق الأحداث التي وقعت في الماضي، مع تحليلها وتفسيرها لفهم تطور المجتمعات البشرية وتأثيرها على الحاضر والمستقبل.

تعريفات الاصطلاح الشائعة للتاريخ

1_ ابن خلدون: في *المقدمة*، عرّف التاريخ بأنه: "خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأحوال الأمم." يتضمن هذا التعريف تحليلًا شاملًا للأحداث البشرية في سياقها الاجتماعي والسياسي.

في موضع آخر يقول ابن خلدون: " اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه."

_ يرى ابن خلدون أن التاريخ يتجاوز كونه سردًا للأحداث، بل هو دراسة اجتماعية شاملة تفيد في فهم تطور العمران البشري والتجربة الإنسانية.

_ كما ركز على المنهج النقدي والبعد التحليلي في دراسة التاريخ، محذرًا من الخرافات والأساطير التي قد تشوه الحقائق.

2_ مارك بلوخ Marc Bloch (1886–1944) مؤرخ فرنسيفي في كتابه *Apologie pour l'histoire*، " اعتذار عن التاريخ أو مهنة المؤرخ " عرّف التاريخ بأنه: " علم الإنسان في الزمن "، ويقصد بذلك أنه دراسة الماضي البشري من خلال التغيرات التي وقعت عبر الزمن وتأثيراتها.

3_ كارل بيكر Carl Becker " التاريخ هو ذاكرة الجنس البشري" ويشير هنا إلى دور التاريخ في حفظ الذاكرة الإنسانية وتوثيقها للأحداث الماضية.

4_ فوس هيرنشو Fossey John Cobb Hearnshaw عرّف التاريخ بأنه: " تسجيل الأحداث الماضية، المتعلقة بالجنس البشري، وشرح العلاقات السببية بينها " يركز تعريفه على الجوانب المترابطة بين التوثيق والتحليل السببي للأحداث.

5_ أرنولد توينبي Arnold Toynbee في كتابه *دراسة التاريخ* " A Study of History "

" التاريخ هو دراسة صعود وسقوط الحضارات " يرى التاريخ كعملية تحليلية لدراسة تطور المجتمعات البشرية والحضارات عبر العصور، بمعنى أن التاريخ هو عملية تفسيرية مرتبطة بالسياق الحضاري أو الحاضر.

6_ روبن جورج كولينجوود R.G. Collingwood في كتابه *فكرة التاريخ* The Idea of Histor " التاريخ هو إعادة بناء تفكير الناس في الماضي." يركز كولينجوود على الجانب الذهني للتاريخ، ويرى أن فهم الحوادث يتطلب التعاطف مع الأفكار التي وجهت أفعال البشر في الماضي. بمعنى فهم البُعد الإنساني والذهني للأحداث.

وفي الموسوعة البريطانية يُعرف التاريخ بأنه: "دراسة الأحداث الماضية، لا سيما الأحداث البشرية، لتفسير طبيعتها وأسبابها وتأثيراتها على الحاضر والمستقبل".

من خلال ما تقدم يمكن القول أن التاريخ هو علم يدرس الماضي البشري استنادًا إلى الوثائق والشواهد المادية والمعنوية، بهدف تفسير الحوادث وتحليلها ووضعها في سياقها الزمني والمكاني. وهو بهذا المعنى يركز على الجوانب التالية:

_ **التوثيق:** جمع المصادر والوثائق لتوثيق الأحداث.

_ **التحليل:** تفسير الأحداث من خلال الربط بين الأسباب والنتائج.

_ **الدراسة الزمنية:** وضع الأحداث في سياقها الزمني.

_ **البعد الإنساني:** دراسة سلوكيات الأفراد والمجتمعات عبر الزمن.

بالتالي، يمكن اعتبار التاريخ علمًا مركبًا يجمع بين السرد والتفسير والتحليل، معتمداً على مصادر مختلفة لفهم طبيعة الحوادث البشرية ودلالاتها في سياق الزمن.

يوجد نوع من الاختلاف في تحديد الفرق بين التاريخ بدون همزة والتأريخ بالهمزة فهناك من يرى أن "التأريخ" بالهمزة يدل على دراسة الماضي و "التاريخ" بدون هزة يدل على الماضي ذاته

والتفريق بين لفظي التأريخ History كتعبير دال على مسيرة الانسان الحضارية على سطح الأرض منذ القدم. وعبارة تدوين التاريخ أو كتابة التاريخ Historiagraphy كتعبير عن العملية الفكرية الانشائية التي تحاول إعادة تسجيل وبناء مسيرة الانسان على كوكبه.

يخلص هرنشو في أن هل التاريع علم أم لا الى القول: أن التاريخ ليس علم معاينة أو تجربة، ولكنه علم نقد وتحقيق. وفي هذا السياق كان ابن خلدون سباقا إلى تحديد هذا المفهوم فقال عن التاريخ : إذا هو في ظاهره لا يزيد على إخبار عن الأيام والدول من القرون الأولى... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل.

ثانيا: مكانة علم التاريخ عبر العصور

أولا: العصور القديمة

1_ عند الحضارات الشرقية القديمة (مثل مصر وبلاد الرافدين)

التاريخ كان مرتبطًا بتسجيل الأحداث الملكية، مثل الحروب والبناء والأنشطة الدينية. النقوش والكتابات على المعابد والمسلات هي أمثلة لذلك

الوعي بالتاريخ ليس مقصورا على من بدأوا استخدام لفظ " تاريخ " أو على من كتبوا المؤلفات التاريخية الكاملة مستخدمين فيها مناهج بعينها، فالوعي بمعنى التاريخ وبأهميته قد تشكل مع أول من سجل وثيقة يصف فيها انجازات البشر في أي مجال من المجالات.

فالوعي بالتاريخ وبأهميته قد بدأ منذ فجر الحضارة المصرية القديمة وكذلك حضارات الشرق الأخرى حيث بدأ الانسان يعي أهمية تسجيل الاحداث التاريخية الكبرى ونسبتها إلى صانعيها من الملوك والحكام. فالنقوش الأثرية على جدران المعابد لاتزال شاهدة على العناية الكبرى التي أولاها هؤلاء الملوك لتسجيل منجزاتهم ومعاركهم الحربية التي ساهمت في تطوير ممالكهم وفي توسيع رقعتها، كما أن أدبيات الحضارات الشرقية المختلفة تكشف عن عمق الايمان بأهمية تسجيل ما حدث في العصور السحيقة والاستناد على أمجاد الشعب السابقة في امكانية النهوض من جديد وصنع الحاضرالذي يحلم به الجميه وعلى رأسهم كتبة هذه البرديات والملاحم والأدبيات المختلفة. ومن أمثالها، ما كتبه ايبوور ونفرروهو في مصر القديمة، وما تذكره ملحمة جاجامش في العراق القديم، وكتاب التغيرات في التراث الصيني القديم فضلا عما جاء في كتاب التاريخ لكونفشيوس ...الخ.

2_ عند الإغريق والرومان

أصبح التاريخ في مرحلة الاغريق والرومان أقرب إلى " سرد منظم للأحداث"، كان **هيرودوت** يُعتبر "أبو التاريخ"، حيث ركز على سرد قصص الشعوب وأسباب الأحداث، بينما اهتم **ثيوسيديدس** بدراسة الأحداث بحيادية، مثل الحروب البيلوبونيسية

ثانيا: العصور الوسطى

1_ كان التاريخ في أوروبا مرتبطًا بالدين، حيث ركزت الكنيسة على كتابة التاريخ من منظور ديني، مثل تأريخ حياة القديسين والأحداث المرتبطة بالكنيسة.

2_ في العالم الإسلامي، شهد التاريخ ازدهارًا مع **ابن خلدون** الذي أسس منهجية علمية لدراسة التاريخ، مع التركيز على الأسباب الاجتماعية والاقتصادية للأحداث.

ثالثا: عصر النهضة وما بعده

1_ أعيد الاهتمام بالتاريخ كأداة لفهم تطور المجتمعات البشرية. ظهر التأريخ القومي، حيث استُخدم التاريخ في بناء الهويات الوطنية.

2_ ظهرت مدارس تاريخية مثل المدرسة الوضعية، التي ركزت على الحقائق المدعومة بالمصادر الوثائقية.

رابعا: في التاريخ المعاصر

توسع علم التاريخ ليشمل دراسة التاريخ الاجتماعي، الاقتصادي، الثقافي، وحتى تاريخ البيئة. تطورت مناهج جديدة مثل **التاريخ الجديد(New History)** ، الذي اهتم بدراسة الحياة اليومية والطبقات المهمشة.